

أوضاع الرقيق⁸⁸ في المجتمع العربي الوسيط

المرحوم الحسين بولقطيب

كلية الآداب-الجديدة

تمهيد،

لعله من نافلة القول التأكيد على أن بعض الظواهر التاريخية تقابل إما بالتهميش أو اللامبالاة من طرف بعض المؤرخين الذين يمكن نعتهم بالرسميين أو المسالمين في أضعف الأحوال. والموقف السلبي لهؤلاء المؤرخين من تلك الظواهر، إنما تعود جذوره في اعتقادنا إلى مواقفهم الفكرية من جهة، ثم إلى انعدام الجرأة لدى أكثرهم من جهة ثانية. ولعل التهرب من إثارة قضية الرقيق في المجتمعات العربية الإسلامية يعد أسطع مثال على الانتقائية التي تميز أعمال هؤلاء المؤرخين.

لقد أصبح نظام الرق في أوروبا معروفا بما فيه الكفاية، فقد درس من طرف العديد من المؤرخين. ويعتبر مؤسسا المادية التاريخية (ماركس وانجلز) من أبرز الذين اهتموا بدراسة نظام الرق في المجتمعات القديمة، حيث بينا أن الحضارة الإنسانية إنما اعتمدت في مرحلة من مراحلها على العمل العبودي لتجاوز معالم مجتمعات المشاع البدائية المتميزة "بغياب الملكية الخاصة للأرض وعدم الانفصال بين الزراعة والصناعة والاكتفاء الذاتي إنتاجا واستهلاكاً في إطار القرية".⁸⁹

⁸⁸ - نعيد نشر هذا المقال تقديراً منا لروح فقيد التاريخ الاجتماعي المرحوم الحسين بولقطيب الذي اختطفته المنون شاباً.
⁸⁹ - مجموعة من المؤلفين، "حول نمط الإنتاج الآسيوي" ط 11، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة، بيروت، 1987، ص 38.

ولذا كان مؤرخو الإشرافات يعتبرون الحديث عن الرق من المحرمات التي يجب الابتعاد عن إثارتها أو ملامستها، فإن نظرتهم هذه تنم عن عدم فهم لمراحل تطور الحضارة البشرية⁹⁰.

فالحديث عن نظام الرق ليس عيبا ولا جرما. فالعيب والجرم في نظرنا هو إغفال حقبة تاريخية كانت لها أهميتها في تطور التشكيلات الاجتماعية – الاقتصادية التي عرفتها البشرية. من هذا المنطلق، فإن مؤرخي أوروبا لا يشعرون بعقدة الذنب عند حديثهم عن نظام الرق. أما في المجتمعات العربية الإسلامية، فإن الحديث عن العبد والعبودية لا يزال محاطا بالكثير من الكتمان والسرية. ومرد هذا في اعتبارنا إلى تداخل الماضي والحاضر في الأبنية السياسية لهذه المجتمعات. فتداخل "الكان" من "الآن" يعتبر سمة بارزة من سمات التاريخ العربي.

1- أهمية تجارة الرقيق في العصر الوسيط،

أصبح من المؤكد أن تجارة الرقيق كانت أساسا مهما من الأسس التي انبنى عليها الاقتصاد العربي الوسيط. ويكفي للتأكد من هذه الحقيقة الرجوع إلى كتب النوازل المنتمية إلى هذا العصر⁹¹. فهي مليئة بالفتاوي التي تهتم حياة هذه الفئة. وهكذا، فإن وجود مثل هذه الفتاوي يفند مزاعم القائلين بانتهاء قضية الاسترقاق بعد نجاح الدعوة الإسلامية. صحيح أن الإسلام نادى بالمساواة بين الناس كما طالب بتحرير الرقيق، إلا أن كثيرا من السادة لم يطبقوا بجدية تعاليمه في هذا المجال. ومن ثم بقيت العبودية قائمة في المجتمع العربي الإسلامي حتى مرحلة متأخرة من تاريخه. إن هذا الحضور للرق والاسترقاق داخل البنية الاجتماعية العربية يدفعنا إلى إعادة النظر في الآراء التي تعتبر العبيد الأوروبيين القدماء هم وحدهم العبيد "الحقيقيون". فإذا كانت العبودية الأوروبية القديمة حقيقة، فهل تكون أي عبودية أخرى متميزة عن العبودية الأوروبية القديمة إذن "غير حقيقية"⁹² ؟

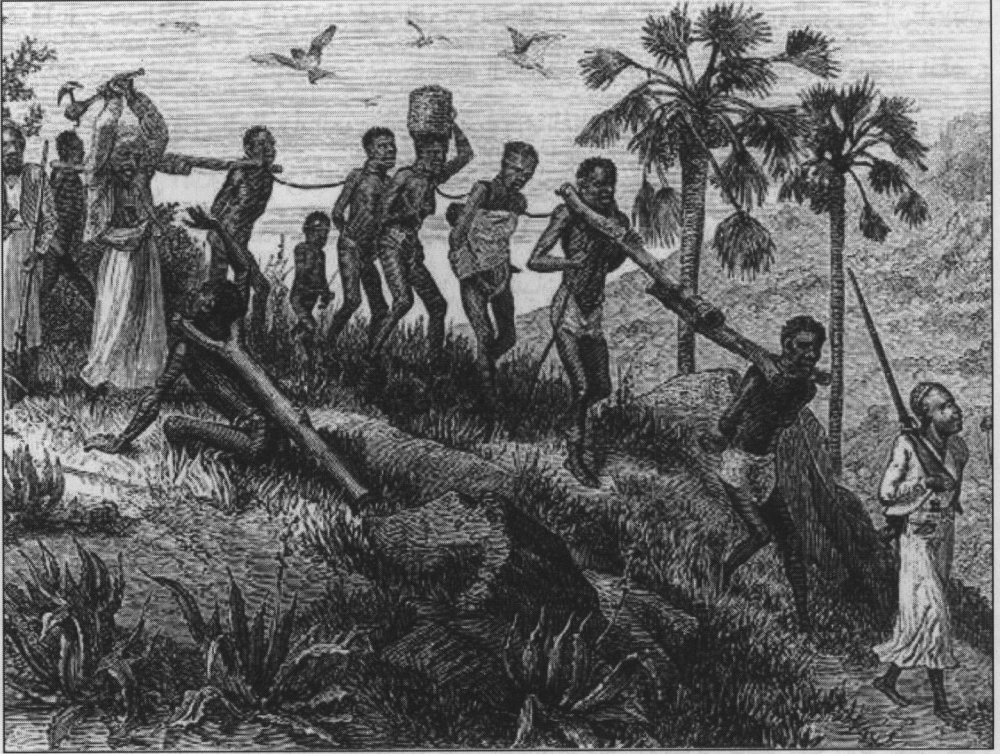
لقد بينت النظريات الاجتماعية الحديثة على أن مقولة العبد لا تنطبق فقط على تلك الحالات التي يكون فيها الإنسان مملوكا وفق صيغة (servi res sunt)(العبيد هم أشياء)،

⁹⁰ - من المؤكد أن المؤرخين الذي يحاولون طمس كل حديث عن الرق إنما يفعلون ذلك اقتناعا منهم بأن البشرية ارتكبت خطأ فادحا بتبنيها لنظام الرق. على أن تقويم الحضارة الإنسانية في اعتقادنا لا يجب أن يحاكم بمنطق الخطأ والصواب. فالظروف الاقتصادية والاجتماعية للمجموعات البشرية في كل حقبة من الحقب التاريخية هي التي تحدد طبيعة الإنتاج والعلاقات الناجمة عنه. على أنه أيضا من الخطأ النظر إلى نظام الرق كنقطة سوداء في تاريخ البشرية، ذلك أن هذا النظام اعتبر في مرحلة معينة كنظام متقدم مقارنة بالتشكيلات السوسيو-اقتصادية السابقة عنه. إن الذين يجب أن يحاكموا هم أولئك الذين استمروا في تبني نظام الاسترقاق بعد تراجع كنهية اقتصادية-اجتماعية.

⁹¹ - راجع مثلا نوازل ابن رشد الجدة، ونوازل القاضي عياض، ونوازل ابن سهيل الأنطلسي.

⁹² - كاتشانسكي (يوري)، "عبودية إقطاعية أم أسلوب إنتاج أسوي؟" ترجمة عارف دليلة، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 1980، ص 212.

وإنما يمكن تعميمها على كل المستغلين اقتصاديا. وبذلك، فإن دياكونوف لم يخطئ كثيرا حينما استنتج وجود فئة واسعة جدا في المجتمعات القديمة في الشرق والغرب من المنتجين المبعدين عن ملكية وسائل الإنتاج والمستغلين بواسطة الإكراه بما في ذلك العنف الحكومي المباشر.⁹³



طريقة لنقل العبيد يقتل المتعبون منهم في الطريق

وسبب إجازة الرق حسب ما هو وارد عند أحمد بابا التومبوكتي هو الكفر، إذ لا فرق بين كافر وآخر. فعلاقة الفرد بالإسلام هي التي استباح بها النخاسون إسترقاق السود والنصارى، واليهود، والفرس، والبربر وغيرهم. يقول أحمد بابا شارحا هذه العلاقة، "فمن سبي على كفره صح استرقاقه كأننا من كان"⁹⁴. ونظرا للعائدات الضخمة التي كانت توفرها هذه التجارة، فإن كثيرا من النخاسين أصبحوا يبيعون الأحرار على أساس أنهم عبيد.

⁹³ - نقلا عن كاتشانفسكي، نفس المرجع ص 216.

⁹⁴ - التومبوكتي (أحمد بابا)، "حكم بيع العبيد المجلوبين من السودان" مخطوط الخزانة العامة، الرباط، ص 84.

وإذا عدنا إلى بعض المصادر التاريخية العربية الوسيطية، فإننا سنجد بها إشارات إلى هذه التجارة البغيضة. فالولاء الأمويون على المغرب كانوا من بين الممارسين لها، وقد شجعهم على ذلك استحسان خلفاء بني أمية لإملاء هذه المنطقة. وقد عبر ابن عذاري المراكشي على ذلك في قوله، "وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ويبعثون فيها إلى عمال إفريقية فيبعثون لهم البربريات السنيات"⁹⁵. ويذكر نفس المؤرخ أن اعتبار الولاة الأمويين خاصة منهم عمر بن عبد الله المرادي البربر فينا للمسلمين كان "سببا لنقض البلاد ووقوع الفتن العظيمة المؤدية إلى كثير من القتل في العباد. نعوذ بالله من الظلم الذي هو وبال على أهله"⁹⁶. وبالمثل، يحدثنا ابن عبد الحكم عن هدايا عبدة بن عبد الرحمن القيسي إلى هشام بن عبد الملك قائلا، "وكان فيما خرج به من العبيد والاماء ومن الجواري المتخيرة سبع مائة جارية، وغير ذلك من الخصيان والخيل والذهب والفضة والآنية"⁹⁷ إن إقبال حكام دمشق على جواري المغرب هو الذي جعل الولاة يتسابقون إلى كسب ودهم عن طريق إرسال اكبر عدد ممكن، الشيء الذي جعلهم يستعملون شتى الأساليب لجمع ذلك العدد. على أن بعض الولاة أنفسهم ضاهوا الخلفاء من حيث عدد الجواري والعبيد العاملين بقصورهم، فقد بلغت أعداد الموالى والخدام الذي كانوا في خدمة موسى بن نصير في المغرب الآلاف. ولعل هذا العدد الهائل هو الذي أثار خوف الخليفة هشام بن عبد الملك من استقلال موسى بن نصير بولاية المغرب، وأدى بالتالي إلى نكته⁹⁸.

من المؤكد أن تعرف المغاربة على السودان، وازدهار التجارة مع مناطقه كان عاملا من العوامل المؤدية إلى التهافت على اقتناء الرقيق الأسود. فالشريف الإدريسي حلل العلاقة الوطيدة بين التجارة مع السودان، وضرورة توفر التجارة على أعداد كبيرة من العبيد عندما أشار إلى أن إرسال تاجر أغماتي واحد لأعداد كبيرة من الجمال المحملة بقناطر البضائع من نحاس أحمر وملون، وأكسية وثياب صوفية وعمائم ومآزر، وأصناف النظم من الزجاج والأحجار الكريمة، وآلات الحديد المصنع، تطلب منه تجنيد أضعافها من العبيد، والأيدي العاملة المسترفة للإشراف على مهام المراقبة والقيادة وأعمال الشحن والإفراغ⁹⁹. كما كانت الحروب والغارات من بين أنجع الوسائل للحصول على العبيد. فالبيدق الصنهاجي

⁹⁵ - ابن عذاري (المراكشي)، "البيان المغرب" تحقيق إحسان عباس. ج 1، ص 53.

⁹⁶ - نفسه، ص 53

⁹⁷ - نقل عن، الجنحاني (الحبيب)، "دراسات مغربية في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للمغرب الإسلامي"، دار الطليعة، بيروت، ط 1، 1980، ص 19.

⁹⁸ - نفسه، ص 11

⁹⁹ - الإدريسي (الشريف)، "وصف إفريقيا الشمالية والصحراوية" نشر بريس، الجزائر، 1957، ص 42.

مؤرخ الدولة الموحدية يشير في حديث عفوي إلى بداية تكون طبقة العبيد داخل المجتمع الموحي الناشئ. فالغزوة الثانية لمهدي الموحدين كانت في جملتها عددا مهما من العبيد سماوا بدءا من تلك الغزوة بعبيد المخزن¹⁰⁰.

واحتلت الأندلس مكانة مرموقة كسوق لبيع وشراء العبيد. وتقدم المصادر معلومات مستفيضة عن الصقالية منهم. ويبدو أن مصدر هذا الصنف من الرقيق يكمن في الحروب المستمرة بين الكيانات الأوروبية، وعجز العلاقات الإقطاعية عن استيعابهم، فكان الحل هو إرسالهم كمادة تجارية إلى أسواق الأندلس¹⁰¹.

وقد اختلفت أثمان العبيد في أسواق النخاسة باختلاف ألوانهم وأعمارهم، وقوتهم الجسمانية. أو جمالهم وما يتقن من صنائع إذا كن إماء. وهكذا، بيعت الإماء السودانيات اللواتي يتقن الطبخ بمائة دينار وأزيد للواحدة¹⁰²، كما بيعت جارية رومية لم تبلغ المحيض بعد بأربعة وثلاثين مثقال ذهبية¹⁰³، وقد ارتفع هذا الثمن ليصل ببلاد الأندلس إلى مثقال ذهبية أيضا¹⁰⁴.

على أن تجارة الرقيق بذيوها وانتشارها، كانت تتسبب في عدة مشاكل بين النخاسين والمشتريين، وهو ما حذا بالفقهاء إلى محاولة تقنينها. وحسب ما يستفاد من إحدى نوازل الفقيه ابن رشد الجد، فإنه كان هناك - على ما يبدو - كتاب جامع للشروط التي يقبل فيها البيع، وتلك التي يفسخ بها¹⁰⁵. ومن المعلوم أن أهم الشروط التي يجب توفرها في العبد أو الأمة خلوهما من أحد العيوب، التي إن ظهرت عليهما أثناء البيع أو بعده مباشرة نقص البيع وأصبح لاغيا، وأعيدا إلى بائعهما¹⁰⁶.

وأهم العيوب التي يفسخ بها البيع، أو على الأقل ينقص بها ثمن العبد هي، الجنون، البرص، الجذام، السرقة. إلا أنه كثيرا ما يحدث أن لا يصرح النخاسون بعيوب عبيدهم للمشتريين، مما كان يتسبب في شجارات ونزاعات تنتهي عادة بتدخل القاضي أو المحتسب.

100 - البيهقي (أبو بكر)، "أخبار المهدي بن تومرت" تحقيق عبد الوهاب بن منصور، الرباط، 1972، ص 38.

101 - الطاهري (أحمد)، "دعامة قرطبة في عصر الخلافة" منشورات عكاظ الرباط، 1989، ص 168.

102 - مجهول، "كتاب الاستبصار" تحقيق سعد ز غول عبد الحميد، الدار البيضاء، 1985، ص 216.

103 - ابن رشد (الجد)، "فتاوى ابن رشد" تحقيق المختار التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط 1، ج 3، ص 1615.

104 - ابن سهيل (الأندلسي)، نوازل ابن سهيل" مخطوط الخزنة العامة، الرباط، ص 51.

105 - ابن رشد، م.س، ج 1، ص 818.

106 - نفسه، ص 531.

وقد تدخل الفقهاء لوضع حد لمثل هذه الشجارات عن طريق سن قانون يخول للمشتري حق إعادة العبد (الفاسد) إلى النحاس في أجل أقصاه ثلاثة أيام¹⁰⁷.

ومهما يكن، فإن تجارة الرقيق كانت من وراء ثراء عدد كبير من النحاسين، والوسطاء، والتجار، الشيء الذي جعلها نشاطا بارزا اتخذ بعض التجار وكثير من المغامرين وسيلة للإثراء السريع. ولنا أن نتصور العدد الضخم من الأيدي العاملة التي فقدتها المناطق المسماة آنئذ بمناطق صيد العبيد. كما لنا أن نتصور الظروف التي كانوا يصطادون فيها، والطرق والوسائل المستعملة لإيصالهم إلى أسواق النخاسة. ذلك أنهم كانوا يساقون زرافات تحت رحمة الجلادين، وكثيرا ما كان بعضهم يموت قبل أن يصل إلى السوق.

2- ظروف عيش فئة العبيد،

احتلت فئة العبيد أسفل الهرم الاجتماعي، وكانت ظروف عيشهم مزرية للغاية. وقد امتهنوا الحرف الخسيسة، التي استنكف سادتهم عن الاشتغال بها كالزراعة والحدادة وبعض الحرف اليدوية الأخرى. ولم تكن أوضاع الإماء بأحسن حال من أوضاع أقرانهن الذكور، وهو ما كان يدفع ببعضهن إلى الفرار من منازل سادتهن¹⁰⁸. إن الخاصية الأساسية التي وسعت علاقة السادة بالعبيد هي خاصية العنف. المباشر والمكشوف. إذ غالبا ما كانوا يكرهون على العمل تحت التهديد بالعقوبات القاسية، وبذلك تحول العنف إلى وصفة ناجعة يمتلك بواسطتها السيد العبد امتلاكا ماديا بالمعنى الاقتصادي¹⁰⁹. فالسيد كان يتصرف مع العبد لا باعتباره شخصا، وإنما بوصفه حيوانا يرغم على العمل بواسطة الإكراه المباشر.

ويحدد السقطي مهام الإماء والعبيد في المجتمع الأندلسي كالتالي، "الخدام البربرية للذة، والرومية لحبطة المال والخزانة، والتركية لإنجاب الولد، والزنجية للرضاع، والمكية للغناء، والمدنية للشكل، والعراقية للطرب، والزنج والأرمن للكد والخدمة، والترك والصقالبة للحرب والشجاعة"¹¹⁰. وإذا عدنا إلى تصفح طبيعة القوة المنتجة في الحقل الزراعي، فإننا سنجد أنها كانت تتألف من المزارعين الصغار والرعاة ومن العبيد في أراضي كبار الملاكين. وعلى الرغم من تنوع هذه القوة، فإن فئة العبيد تبقى هي القوة الأساسية، وقد أصبحت بعد الفتوحات تمثل فئة اجتماعية بارزة في مجتمع المدينة. فقد روي

¹⁰⁷ - ابن سلمون (محمد)، "العقد المنظم للحكام فيما يجري بين أيديهم من الأحكام والعقود" مخطوط الخزانة العامة، الرباط، ص. 66.

¹⁰⁸ - ابن سهل، م. س، ص. 62.

¹⁰⁹ - كاتشانفسكي، م س، ص. 216.

¹¹⁰ - السقطي (أبو عبد الله)، في آداب الحسبة" نشر بروفنسال وكولان، الرباط، 1931، ص. 49.

عن عبد الله بن عباس أنه قال، "أعتق العباس عند موته سبعين مملوكا¹¹¹. وجعل معاوية ابن أبي سفيان أربعة آلاف من الرقيق وأسره في الخضارم من إقليم اليمامة لاستصلاحها واستثمارها¹¹².

وفي المغرب، يبدو أن عدد العبيد كان مرتفعا في المناطق الواقعة على أبواب الصحراء، أو المتاخمة لها كأعالي درعة ودادس ووادي سوس وواحات نون وباني، وكان أغلب شيوخ الأودية العليا يملك عبيدين أو ثلاثة على الأقل. وبسبب هذه الأعداد الهائلة من الرقيق التي كانت تجلب سنويا إلى مختلف الحواضر الإسلامية، سواء في المشرق أو المغرب، فإن عدد السكان عرف نموا ملحوظا، كما أحدث تغييرا جذريا في البنية الاجتماعية لهذه المدن. ولم تقتصر مهام العبيد على العمل الزراعي والحرفي، وإنما كان البعض منهم تابعا لهياكل الخلافة يساعد الخليفة وأعوانه على تدبير شؤون الدولة وخدمة المسلمين. فقد روي عن ابن عمر "أن عمر أوصى عند الموت بأن يعتق من كان يصلي السجدين من رقيق الإمارة، وأن أحب الوالي بعدي أن يخدموه سنتين فله ذلك"¹¹³.

على أن الدارس لا يمكنه أن يتغاضى عن موقف بعض الأحزاب السياسية الإسلامية، التي تفتنت إلى ما يعانیه العبيد والموالي من قسوة الاضطهاد، وأيضا إلى ما يشكلونه بحكم ارتفاع عددهم من قوة ضاربة في المجتمع الإسلامي، فحاولت توظيف هذه المعطيات في صراعها من أجل الوصول إلى الزعامة السياسية. ولدينا في هذا الصدد عدة أمثلة سنكتفي بالإشارة إلى أبرزها.

فقد تزعم المختار ابن أبي عبيدة حركة معارضة في الكوفة عام 66 هـ اعتمدت أساسا على عنصر الموالي، الذين النفوا حولها أملا في التخلص من سطوة الإدارة الأموية. وعلى الرغم من فشل حركة المختار، فإنها مع ذلك قد نجحت في أن تبرز على سطح الأحداث معاناة فئة مهمة داخل المجتمع الإسلامي تدير عجلة الإنتاج في غياب أدنى تعامل إنساني. والحق أن حركة متنورة كحركة المختار ما كان لها أن تنجح داخل مجتمع تميز بسطوة أرسقراطية ذات عقلية متحجرة ومتشعبة بروح الميز العرقي والطبقي. وهاكم التبرير الذي قدمه أشراف الكوفة عن سبب مناهضتهم لحركة المختار، "...ولقد أدنى موالينا، فحملهم على الدواب،

¹¹¹ - نقلا عن الجعاني (الحبيب)، "التحول الاقتصادي والاجتماعي في مجتمع صدر الإسلام" دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ص. 98.

¹¹² - نفسه، ص 91

¹¹³ - نقلا عن نفس المرجع، ص 91.

وأعطاهم وأطعمهم فينا، ولقد عصتنا عبيدنا" ¹¹⁴، ثم خاطبوه قائلين، "عمدت إلى موالينا وهم فيئ أفاءه الله علينا وهذه البلاد جميعا، فاعتقنا رقابهم، نأمل الأجر في ذلك والثواب والشكر، فلم ترض لهم حتى جعلتهم شركاءنا في فينا" ¹¹⁵

وفي المغرب، استطاع الخوارج بفضل ما تضمنه برنامجهم السياسي والديني من مساواة وعدالة اجتماعية أن يجذبوا إليهم جموع البربر، الذين كانوا يعانون من طغيان الولاة الأمويين، ومن انعدام العدالة في توزيع الفئ بينهم وبين المقاتلة العرب، فشكّلوا عصبتهم وخزانهم من المحاربين. وبفعل هذا التلاحم بين العصبية ودعوة حق تمكن الخوارج من تأسيس دولتين لهم في كل من المغرب الأوسط وسجلماصة.

تعتبر ثورة الزنج بمنطقة البصرة من أشهر الثورات والهبات، التي أظهرت بجلاء تدهور الوضع المعيشي لفئة الرقيق خاصة منهم العاملين بالقطاع الفلاحي. ولم يخطئ أحد الباحثين المحدثين كثيرا عندما اعتبرها الجواب المنطقي على مرحلة تميزت "بالتسلط الإقطاعي" ¹¹⁶. وعند تحليلنا لمنطلقات وأبعاد هذه الهبة يتضح جليا بأنها كانت هبة طبقية محدودة الأفق، تقتصر إلى برنامج ثوري بعيد المدى. إذ لم تهدف سوى إلى تحرير الرقيق الأسود في المنطقة. ومن المآخذ التي سجلت على زعمائها تكرارهم لنفس الممارسات التي هبوا للثورة عليها، ذلك أنهم لم يترددوا في استرقاق السادة البيض حين أمكنهم ذلك. على أنه من الانصاف أن نذكر بأن ارتكاب الزوج الثائرين لفظائع أنكرتها حتى بعض فئات العامة يعود إلى فظاعة الاستغلال الذي تعرضوا له، وإلى تمكن الحقد الطبقي من قلوب أغلبهم.

ولعل ثورة القرامطة الإسماعيلية تعد أوسع حركة اجتماعية عرفها المجتمع الإسلامي. وقد قامت باسم المبادئ الإسلامية، ونادت بالعدالة الاجتماعية، وبإزالة الفوارق بين فئات المجتمع. وقد عرفت آراؤها انتشارا واسعا، ولاقت استحسانا في أوساط المهتمين من مختلف الاثنيات. وعلى عكس الزوج، فإن القرامطة ارتقوا بثورتهم إلى مستوى تأسيس سلطة مركزية في منطقة البحرين. كما أوجدوا نظاما تعاونيا يقتضي فرض ضرائب باهظة على الأغنياء من أجل تغذية بيت المال، الذي كانت توزع مداخيله على الفقراء والمحتاجين ¹¹⁷.

¹¹⁴ - الجعاني، "تراصات مغربية"، ص 24

¹¹⁵ - نفسه، ص 24.

¹¹⁶ - محمود (إسماعيل)، "سوسيولوجيا الفكر الإسلامي" دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب، 1980 ج 1، ص 92.

¹¹⁷ - رونسون (مكسيم)، "الإسلام والرأسمالية" ترجمة نزيه الحكيم، دار الطليعة، بيروت، 1974، ط 2، ص 41.

وما كان للثورة العباسية أن تتجح لولا استغلالها للتناقضات الصارخة التي كانت تنخر جسد السلطة الأموية. ومن بين هذه التناقضات الوضعية المزرية للموالي والرقائق عموما. صحيح أن الثورة العباسية قد قضت على الكثير من مظاهر التمييز بين العرب والموالي، إلا أن وضعية الرقيق الأسود لم تشهد تحسنا كبيرا بدليل ازدهار تجارتهم وتزايد أعدادهم. والحق أن العباسيين لم يكن بإمكانهم أن يقضوا نهائيا على الفوارق بين العبيد والسادة، ذلك أن هذه الفوارق كانت قد استحكمت، وأصبحت تقليدا من تقاليد المجتمع، وجزءا من الهيكل العام للدولة، التي كانت - وكعادتها دائما - أكثر تفهما وإحساسا بمصالح الفئات الاجتماعية المحظوظة.

وهكذا فإن خلو العصر العباسي الأول من انتفاضات رقية لا يقوم دليلا على انتهاء مشكل الرق، حتى وإن كان عدد منهم قد حصل على حريته نتيجة العتق أو الزواج من الإماء. فانتفاضة القرامطة التي انضم إليها العديد من الرقيق الأسود تعد أسطع مثال على استمرارية معضلة الرق. صحيح أن أوضاعهم قد عرفت بعض التحسن، كعدم استخدامهم في عمليات الإنتاج على نطاق واسع، إلا أنهم، وفي المقابل استخدموا في الجيش، أو في الأعمال المنزلية. على أن بعض الدارسين أرجعوا هذا التغيير إلى طبيعة المرحلة المتميزة بتراجع الإقطاع وسيادة "الصحوة البرجوازية"¹¹⁸.

لقد كان الهدف الأسمى، الذي سعى كل العبيد إلى تحقيقه هو الحصول على حريتهم، والارتقاء إلى مستوى سادتهم. وطبعاً، فإن هذا الهدف لم يكن مناله بالشيء الهين، خصوصا وأن السادة قاوموا في البداية فكرة الاختلاط بعبيدهم. إلا أن ما هو ملاحظ، سواء في المشرق أو المغرب، أن بعض هؤلاء السادة، وتحت ضغط الأزمات اضطر إلى تزويج بناته لعبيده، وهو ما كان يؤدي إلى حصولهم على حريتهم، ودخولهم بالتالي إلى الأسرة العربية من أبوابها العريضة. على أن بعض الاماء بدورهن، وخاصة منهن الفارسيات والتركيات والبربريات والروميات تمكن من الحصول على حريتهن عندما اضطرت عناصر من الأرستقراطية العربية إلى اتخاذهن زوجات لهم.

118 - محمود (اسماعيل)، "سوسيولوجيا الفكر الإسلامي" دار الثقافة، الدار البيضاء، المغرب 1980، ج 2، ص. 193.

خاتمة،

إن موضوع الرق لا يزال في اعتقادنا في حاجة ماسة إلى المزيد من البحث والتنقيب. والدارس العربي عندما يثير هذا الموضوع لا يهدف إلى المس بتعاليم الإسلام، ولا إلى خدش شعور المسلمين كما يريد البعض أن يوحي بذلك. فتعاليم الإسلام واضحة في هذا المجال. أو لم يجعل الله عتق رقبة كفارة لمن أفطر عمدا في رمضان؟ إن الإسلام بريء من أولئك الذين يريدون التستر خلفه، والتذرع به لطمس بعض القضايا الجوهرية في التاريخ العربي الإسلامي. فالإسلام، كديانة سماوية جاءت للناس كافة، طالب بالعدل والمساواة ونبذ كل أصناف الميز. فالناس في العرف الإسلامي سواسية كأسنان المشط.

وبالمثل، فإن إثارة قضية الرقيق في المجتمع العربي الإسلامي تجرنا إلى التمييز بين الإسلام كما جاء في القرآن والسنة وبين الإسلام التاريخي، أي التمييز بين الإسلام الحق وتطبيقاته في الواقع العملي. ومن هنا، فإن الحديث عن الرقيق هو إسهام في إحياء تاريخ المهمشين والمستغلين والمنبوذين، إنه في التحليل الأخير حديث عن منسي التاريخ الرسمي وصانعي التاريخ الفعلي !